عبق المواعيد

أمسَيتُ أروَحَ مُثرٍ خَازِناً وَيَداً

أنَا الغَنِيُّ وَأموَالِي المَوَاعِيدُ

الفصل الاول

غداً سانسى

حِكَايَةُ حُبِّنَا خُتِمَتْ

فَمَا أَشْجَى وَمَا أَقْسَى

جَمِيلٌ مِنْكِ أَنْ تعفَيْ

وأَجْمَلُ مِنهُ انْ أَنْسَى

•

عمر ابو ريشة

قصة وجدانية

في اربع ومضات

زنبقة

ليلة لا كالليالي!

مليئة بالأضواء. فارغة من الليالي.

كئيبة... كئيبة ليلة العيد.

تذكرني بأن سنة أخرى قد سلخت من عمري. وأن الزمن يمرّ...

وأنا أخاف الزمن.

ليلة لا كالليالي.

أكرهها لأنها فارغة من الليالي.

عبثاً أبحث في سنتي الماضية، سنتي الملونة الباردة، عن ذكرى دافئة تهدهد ليلتي هذه.

أتأمل يديّ المنفرجتين. لا أجد فيهما سوى زنبقة.

في عطرها ألوب على عالم مجهول.

الأصدقاء حولي.

وجودهم يؤكد لي غربتي.

كثرتهم تشرح لي وحدتي.

ابحث في عيونهم عن عينين لا أعرف لونهما.

في وجوههم أبحث عن وجه لا ملامح له.

ويغلف ضياعي عبير الزنبقة.

ابتسم ساخرة:

"لمن خبأت في يديَّ عبيراً وشذى؟"

فجأة أراه قبالتي!

أقف حائرة أمام الوجه الأليف.

هذا الوجه الذي دمغته شموس حينا...

وتركت ينابيعنا في عينيه لمعانا.

وجه عرفته صامتا متكبرا في طفولتي.

وعندما أصبحت شابة كان قد غاب.

تطوقه نظراتي. لهفتي المتسائلة تغمره.

اسمع الصوت الثابت يدمدم:

- عدت من البلاد البعيدة لا قضي معكم ليلة العيد...

ويلتفت إليّ.

وتبتسم عيناه. فيختفي وراء بسمة عينيه الأصدقاء.

ويتوقف الزمن.

وفجأة أفهم قيمة العبير في يدي.

احضن الزنبقة. أقدمها إليه.

- مجيئك أحلى هدية!

وترفرف الموسيقى.

* * *

اللحظات تمرّ بسرعة.

الدخان يتصاعد. الموسيقى تعلو.

الآخرون يرقصون. يهزجون. يودعون السنة. يضيعون في الدخان.

الصخب يقربني منه. من صمته.

وتلتقي نظراتنا.

فتهبّ زوبعة شوق وحنين تلف كلينا
تعزلنا عن الآخرين. ترمينا في عالم لا مرئي.
واشعر فجأة بالطفولة تتجمع على ثغري. وبالصفاء الذي هرب
مع الأيام يعود إلى طرفي الحزين.
وبين عيوننا الرانية يمتدّ تاريخ طويل... طويل...
في صفحاته... مخلوقان حنا عليهما حيّ واحد ولم يلتقيا...
وجمعهما رأي واحد ولم يتحدثا... وارتفّت أهداب الواحد
منهما للآخر حنانا... ولم يعلما...

يمدّ إليّ يديه. يتمتم:

- مازلت في عينيّ صغيرة.

تزحف يدي مطمئنة لتتكوم إلى جانب الزنبقة في اليدين
الكبيرتين.
وفي تلك اللحظة تطفأ الأضواء. تخفت الموسيقى.
ويزعق الزمن:

"السنة تولّي!"

ترتعش الزنبقة.
فيهبّ ضباب عاطر أبيض يحلق في الجوّ.

في حناياه طيفان التقيا...
سعادة دافئة تلمع في عينيّ. تتحدى الظلمة.
وينهمر الطيب. فيسبح خيالنا في دمع الزنبقة.

* * *

ليلة لا كالليالي.
فارغة من الأضواء. مليئة بالليالي.
تنسيني أنني أضعت عمري.
ففي لحظاتها تكاثفت لحظات عمري.

ويسألني الصوت الثابت:
- هل تذكرينني غدا... في غيابي؟
غدا؟
كلمة جارحة تمزق حلمي!
ويتفتت الضباب العاطر الأبيض وأهوي إلى الأرض.
غدا...؟
أي طريق لم تلتق بطريقي.
غدا...؟

أي بلاد بعيدة عن بلادي.

غدا...

أي زنبقة تموت بين يديّ ولا أدري لمن أهديها...

بلى

سأذكر في ليالي الطوال الفارغات

ليلة لا كالليالي.

ليلة مليئة بأحلام الليالي.

لكنني لن أبوح. لأنني أخاف من الليالي.

أغلف كذبي بالضحك وأغمغم،

- أنا أنسى دائماً...

يطعنني جوابه:

- أنت واقعية... تعيشين اللحظة للحظة.

وتسطع الأنوار. تعلو الموسيقى. يتكاثف الدخان.

* * *

هل أخبره أنني قلب مزّقته الأيام بأظافرها؟

هل اشرح له أنني وجع صبغته العاطفة بنزفها؟

هل اعترف له بأنني غدا

سابحث عبثاً عن عينين اعرف لونهما ،

من وجه سأدمن ملامحه...

وأن خيالي سيلوب غدا في البلاد البعيدة ،

على طيف حبيب يحضن زنبقة غريبة؟

التفتُ إليه. أتأمله.

في شبابه الرائع أرى عنفواني.

لا! لن أبوح!

اسحق لهفتي وأقول ساخرة:

- نعم... أنا واقعية... لا أؤمن بالعاطفة.

وتنزلق نظراتي إلى الزنبقة في يديه.

أراها ترقص جذلى في العالم الأمين. ويفيض حنيني.

لقاؤنا كهذه الزنبقة. لحظات جمال قصار.

وليلتي هذه... كعبيرها.

نعم. سأنساهُ غدا... يجب أن أنساه.

وتسيل دموعي.

ينظر إليّ في حبّ متعجبا:

- لماذا تبكين؟

لا! لن يعلم أنني أبكي لأنني مضطرة لأن أنساه.

ابتسم بجهد وأتمتم:

- لا... لا... أنا لا أبكي... إنه الدخان... الدخان في عيني...

دمشق 1963

* * *

رقصة

نظراته... صلوات صامتة تهمي على وجودي...

أنفاسه... أبخرة معبد ضائع تعبق في أجوائي...

خطواتي يسيرها اللحن، فتتبع طائعة خطواته.

لكنني لا أشعر باللحن.

أنا في عالم دافئ تسوّره ذراعان.

كيف؟

كيف، خلال لحظات نسيت صقيع حياتي؟

وأتضايق من نشوتي فاخنقها.

احمل الطرف متحدية إلى عينيه:

- غدا سأنسى.. أننا معاً رقصنا.

صمته يبتلع كلماتي.

صلوات وثنية تنصبّ في عينيّ.

تضيق حدود عالمي. فتستسلم نفسي للدفء.

خطواتنا تختلط بالموسيقى.

الأضواء تئن في الزوايا.

أنينها الأحمر يغمر الراقصين.

اللحن يعلو. الأضواء تخفت. المتمايلون يتكاثرون.

لكنني لا أرى الناس. لا آبه للنور.

أنا في عالم أمين تضيئه عينان.

كيف؟

كيف لملمت تشردي في ثوان؟

طمأنينتي تزعجني. أتجاهلها.

ارفع وجهي إلى وجهه:

- غدا سأنسى... أننا التقينا!

ويحرق عبارتي بريق عينيه.

نفسي تتصاعد مع أبخرة المعبد الضائع...

فاسبل أهدابي على صلاة تنبض

ويتلاشى في الموسيقى... كياني.

* * *

العيون تحدق إليّ.

الناس!

أيها الناس... تناسوني للحظة.

أنا نفسي قد نسيت نفسي.

هذه الرقصة لحظة وجود ، غبت أنا فيها.

الموسيقى تحملني ، تشجيني ،

تذكرني بالحياة ... تُنسيني...

أنا في عالم صاغه نغم، أضاءته عين،

سورته ذراعان.

نغمة ضائعة أنا. وهذا العالم لحني.

* * *

وأخاف من نفسي على نفسي.

فاتأمل وجهه مصممة. وأحاول إقناع نفسي.

"أيها الساكن في البلاد البعيدة

"يا دفء لحظة سرابية

"لا تغرنَّك رعشتي

"لا تصدق رفيف أهدابي

"نيزك أنت في سمائي المظلمة

"وغدا... سأنسى رقصتنا

"سأنسى اللحن

"سأنساك...

وتتباطأ خطواتنا.

* * *

اللحن يختفي. يرتفع لحن جديد.

يصمد عالمي. سجينة الأسوار أبقى.

ويلفني الصوت الثابت المتكبر:

- لنرقص ثانية... ولننسَ غدا...

فغداً ستنسين!

غدا...!

ويطير تفكيري إلى الغد. غدي الجليدي شبيه أمسي.

وهنالك...

في البلاد البعيدة.. سيلوب غدا تشردي

على لحن دافئ تخاطفته نغمة غريبة.

غدا...؟

..وتتساقط الثلوج على وجودي.

وتنهار أسوار عالمي.

خائفة أتمسك بكتفيه واهمس:

- لنرقص ثانية... نعم... ولننسَ غدا...

فغدا...

واختنق جملتي.

لن أبوح! لن يعلم أنني غداً سأبكي.

أنا وحدي اعرف سرّ دمعي.

ارفع الرأس في عنفوان. من مقلتيّ تسيل بسمة ...

واستأنف:

- لنرقص.. ولننسَ غدا.. فغداً سأنسى.

1963

* * *

سيجارة

- احرقيها! ما قيمتها إذا لم تحترق؟

وتمتدّ يده بالشعلة إلى لفافتيّ الحيرى.

أحضن اليد القوية. اسحب نفساً طويلا.

وخلال الدخان أتأمل وجهه.

"من قال للغالي إنني أجهل قيمة الاحتراق؟

"كيف صدّق أنني امرأة نحتت من صخر؟

"كيف لم يفهم أن برودي ستار تتأجج وراءه

انتفاضة الطبيعة؟

ويتابع الصوت الثابت:

- هذه اللفافة تفني نفسها لتعطينا ناراً وسعادة..

ما قيمتها إذا لم تحترق؟

ويتصاعد الدخان.

وتتغلغل كلماته في الغلالة الرمادية:

- كيف لا تؤمنين أنت بالاحتراق؟

سؤاله تطويه ابتسامتي المتسامحة.

تضيع نظراتي في ضباب الكلمات. أظل صامتة.

"أنا لا أؤمن بالاحتراق؟ كيف؟

وراء الجليد الذي

أغلف به نفسي...

نسجته أنا من رماد جراحاتي..!

"أنا الطائر الذي لا يغرد إلا إذا نزفت النار

أعماقه...

"أنا النغمة التي لا ترفرف إلا إذا عزفها

الاضطرام...

"أنا الدمعة التي لا تتوهج إلا إذا صاغها

اللهيب...

"أنا لا أؤمن بالاحتراق يا "غالي"...؟

"ونفسي تتصاعد الآن مع دخان اللفافة، وتنتشر بخوراً في هيكل حبّك؟

"كيف آمنت أنت بتمثيلي؟

وتدور نظراتي إلى عينيه معاتبة...

فيتلاشى العتاب، ويموت العالم حولي، وأعيش أنا في جنتين ربيعيتين فياضتين بالحنان.

أخاف على نفسي. فاهرب.

أخاف من نفسي. فأقول متمردة على نفسي:

- أنا لست عاطفية!

سكونه يفضح كذبي.

ويجرحني تسامح عينيه. فأعود تائبة إلى الجنتين واذرّ في ربيعهما اعترافي.

"خائفة يا غالي... خائفة...

"هذه الأشجار الوارفة لا املك ظلها...

"وهذه المناهل المتدفقة يرشف كوثرها غيري...

"طائر محطم الجناحين أنا...

"طائر لم تعطه الطبيعة عشاً...

"لا تغرني بالجنة، ما دمت عابرة...

"لا تغرني بالربيع، ونفسي شتاء لا يعرف الربيع...

"لا تغرني بالسعادة...

"اكره السعادة لأنني عاجزة عن دفع ثمنها...

"فالليالي السود الطوال قد ازدردت قدرتي على العذاب والألم...

"يجب أن اهرب فسامحني

"يجب أن اهرب قبل أن يعريني الربيع من ردائي الجليدي.

"يجب أن اهرب قبل أن... أبوح...

أنفض رأسي. وأنطق مؤكدة لنفسي.

- نعم... أنا لست عاطفية... أنا أعيش اللحظة للحظة... ثم أنسى...

يقاطعني الصوت المتكبر في شرود:

- وغدا ... حين امضي... ستنسين!

ويشعل لفافته.

غدا... حين يمضي!

وأحدق إلى اللفافة المحتضرة بين أناملي.

غدا...

أي نفسي التي ستحتضر مع كل لفافة أفنيها.

غدا...

أي حيرتي حين لا أميز رماد اللفافات من رمادي...

غدا... أي دخان... ودخان... ودخان...

أحاول إخفاء ارتباكي. ابحث عن منفضة.

اسحب نفسا أخيرا. ومع اللفافة اسحق بقايا شعوري.

وترَنمّ ابتسامتي المُرة.

"ما قيمة اللفافة إذا لم تحترق؟"

فجأة تطفر دموعي!

ينظر إليّ متعجبا ثم متسائلا.

ويتمتم الصوت الثابت في حنان:

- أنت لست عاطفية... فلماذا تبكين؟

أحمل إليه عينيّ الفائضتين:

أنا لست عاطفية... ولكن....

ما قيمة العيون... إذا لم تبكِ؟

دمشق 1963

* * *

كأس

مملوءة تتوهج بين يديّ.

نظراتي تغوص في العالم الذهبيّ. تعمرّ فيه دنيا من الأحلام.

وتعانق في الضياء الوجه الغالي.

مملوءة تشعشع بين يدي.

وتتسرب أشعتها المحرقة إلى كياني.

فأخاف النار وأرفع الطرف إلى عينيه.

اهرب من شمس إلى شمس.

مملوءة. ولا احبها مملوءة.

أجرعها.

وترشف عيناي بوح عينيه.

* * *

أعجب من نفسي.

سنوات طويلة كنت فيها ضائعة في الوجود.

وحين اهتديت... ضعت في عينين.

وأخاف البوح. فانزع طرفي من العينين إلى كأسي.

* * *

فارغة.

تنوح بين يديّ.

نظراتي تتوغل في غياهبها. تبحث في متاهاتها عن وجه غال.

عن وجه عابر... كان عبوره بقاء.

فارغة...

وأنقاض عالم ذهبيّ تلمع على حوافيها.

فارغة...

كغدي الفارغ إلا من الذكرى.

فارغة...

ولا أحبها فارغة.

فيملؤها لي من جديد.

ويتمتم الصوت المتكبر:

- غدا... كلما شربت كأساً في البلاد

البعيدة سأذكرك...

غدا...!

ويملأ الغد كأسي.

وفي العالم الذهبي تنهار دنيا من الأحلام.

وتسبح نظراتي لائبة على عينين...

مملوءة كأسي بوهم الغد.

أخاف الغرق... فأجرعها!

فارغة كأسي واكره الفراغ... فاسكب فيها دمعي.

واحمل طرفي السكران الى عينيه:

- لا تذكرني... إذا شربت غدا... فغدا...

غدا سأشرب لا نساك...

دمشق 1963

الفصل الثاني

نغمات حبّ

أَعْطِنَا حُباً فَبِالحُبُّ

كُنُوزُ الخَيْرِ فينَا تَتفَجَّرْ...

وأَمَانِينَا سَتَخْضَرُّ علَى الحُبُّ

وتُزْهِرْ...

فدوى طوقان

نثر يبحث عن اوزان

عاد الغائب

- عاد الغائب!

لفظتها أخته في حنان وفرح.

وأردفت صديقة:

- وسيكون هنا بعد لحظات!

وردّد الصدى:

"لتمطر السماء لآلئ. لتتفتح أزرار الورد.

لتزغرد الطيور. عاد الغائب!"

وتذرع الاثنتان الغرفة جيئة وذهابا.

وأبقى أنا في مكاني جامدة وعلى وجهي قناع صمت!

* * *

- سنملأ المزاهر بالورود والأجواء بالألحان.

سندعو جميع الأصدقاء والصديقات...

تتابع الصديقة مؤكدة على كلام الأخت:

- نعم... يجب أن نحتفل!

ويرتفع الصدى:

"لتهزج العيون.. لتتناثر الأشعار.

لترقص الدبكة.

عاد الغائب!"

وتقترب الاثنتان من النافذة متلهفتين.

وأظل أنا في مكاني عاجزة عن الحركة.

* * *

- اذكر يوم ودعنا أخي في المطار...

كأنه البارحة.

تعلق الصديقة ضاحكة:

- كادت الطائرة أن تفوته. لست ادري

لماذا وصل متأخراً يومها...

وأغمض عينيّ.

في غرفة غريبة أرى نفسي واقفة أمام النافذة وهو إلى جانبي.

عقربا الساعة يقتربان من موعد الرحيل وينغرزان في قلبي.

يجب أن يمضي كي لا تفوته الطائرة.

الدمع يملأ عينيّ، والصوت الهادئ الحنون يتمتم:

- سأعود إليك بالرغم من كل شيء.

سأعود إليك رغم جميع الحواجز.

سأمحو الحواجز وأعود إليك...

أحاول أن أقول له إنني سأنتظر.

وانه ماضيّ وحاضري ومستقبلي. انه عمري...

لكنّ الغصّة تخنق كلماتي فأدفن رأسي في كتفه وابكي.

* * *

- مرّت كالومض هذه السنوات الثلاث...
سيرى أخي لأول مرة طفلي الذي أنجبته
في غيابه ... سيرى سيارتنا وسيتعرف
إلى حياتنا الجديدة...

تبتسم الصديقة:

- وأنا سأعرفه إلى خطيبي.....
سنحدثه مطولاً عن هذه السنوات التي
مرت كالومض

ويسخر الصدى:

"أغرقوه بأخبار السنوات التي طالت
وطالت...
"حدثوه عن ساعات السعادة السطحية.
"مرّغوه بأشواقكم الآنية الهامشية.

وابقى أنا صامتة.

تحت أهدابي تزحف ثلاث سنوات كئيبة ثقيلة.

ثلاثة دهور كانت كل ثانية منها جسر شوق يمتد إليه.

ثلاث سنوات أغرقت نفسي خلالها في عملي الصحفي،

تمسكت بعملي كي أنجو من اليأس المحتم.

فكان كل حرف كتبته قلبا ينبض بحبه.

وكل بسمة رسمتها على ثغري دمعة مقنعة تتلهف له، وكل إنسان قابلته وجها ميتا يؤكد لي أن حياتي كلها ليست إلا انتظارا...

* * *

- ماذا بك؟ جامدة كالصنم؟ صامتة كالحزن؟

ألست فرحة بعودة أخي؟

تعلق الصديقة ممازحة

- وهل هي تتذكر الغائب؟

هي ليست مثلنا. فهي دائماً مشغولة

بالكتابة، بالمقابلات، بالوجوه الجديدة...!

تضحك الأخت:

- وهل أنستك الوجوه الجديدة وجه غائبنا

الغالي؟ ألا يهمك رجوعه؟

أظل في مكاني صامتة.

السخرية تعقل لساني.

لكنّ الأنثى في أعماقي تبكي، فيلمع دمعها بوحاً في العينين:

"كيف... كيف افرح برجوعه؟

وهل كان في لحظة عني غائباً؟

تموز 1966

مَا وَجَدْتُك

كان المساءُ في ذاك اليوم

أنشودةً حزينَةْ

أُنشودةً ناعمةً حنونا

ردَّدْتها في انتظارِكْ...

كانتِ النجومُ دموعَ شَوْقٍ

تتوثَّبُ للقائك...

كانَ الظلامُ مأوى

لأملٍ قد يُشَعْشِع

أمل

أَحرقَ بريقهُ قلبي.

وكانَ قلبي في ذاكَ المسَاء

يَضْحَكُ ويبكي...

لسْتُ أَدري لماذا...

فلطالما بكى القلب في الفرَح...

تراه يدري

أن ثمنَ السعادة...

بكاءْ...

* * *

وتأخرّتَ!

فَرُحتُ أبحثُ عنكَ حولي.

في كلِّ نغمةٍ عزَفَها السُكون

بحثتُ عَنْك.

في وَقْعِ خُطُواتِ عابرٍ

أَغراهُ لَيْلُنَا بالتسكّع

في هديرِ سيَّارةٍ

لم يَسْتَوْقِفها بَيْتي

وفي صَدَى أُغنيةٍ نَاشِزة

تمزَّقتْ في حَنْجرةِ سكران...

قمراً باهتاً لفظه اللَيلْ

فهوى علىَ شرفتي

يبكي...

كانَ المساءُ في ذاكَ اليَوْم

أُنشودةً حزينَة

بحثتُ عنْكَ فيها...

فما وَجَدْتُك...

* * *

وَعُدْتُ إلى عالمي

لجأتُ إليه لأسألَه عنك.

في الدواةِ الخضراءِ

بحثْتُ عن أَملٍ يغيب.

وعلى الأوراقِ

وبَينِ الحروفِ

وفي زَغْرَدَةِ القلم

بحثتُ عَنْك...

وَطَالَ لَيْلي وَطَال

وَتَراكمتِ الثوَاني عَلَى أجفاني

وتراكمتِ الدموعُ تحتَ الأجفان...

وَفي كلِّ ثانية

وفي كُلِّ دمعَة

بحثْتُ عَنْك!

في الأَرقِ المضني

في الحُرقةِ البَاردة

وفي زوايا وحْدَتي

بحثتُ عَنْك...

كَانَ الليلُ في ذَاكَ اليَوْم

حَشْرَجة أملٍ مجروح

حَشْرَجةً خافتةً كئيبةً

بحثتُ عَنْك فيها

فما وَجدْتُك...

* * *

وَرُحْتُ أُحرقُ اللَيلَ

معَ اللفافاتْ...

وَحينَ خرجتُ إلى الشُرْفة

كَانَ الجوّ رمادياً...

وكانتِ السَماء في البَعِيد

بُسْتانَ بُرْتقالْ...

وَبَحثْتُ عنكَ

في لَوْحةِ نهارٍ لَمْ تكتملْ

وَفي كلِّ عابرٍ نامَ ليلَهْ

وَحِين تسرَّبتْ خُيوطُ الشمس
الى عينيّ
سَألتُ الضوءَ عَنْك...

كَانَ الفجرُ في ذاكَ اليوم
لُفافاتٍ احترقتْ...
لُفافاتٍ بحثتُ
في رَمَادها عَنكْ
فمَا وجدْتُك
كانَ ذاكَ اليوم
تمثالاً...
نحتُّه من لهفتي
وحينَ هوَى التَمثال
بحثتُ عَنْكِ في الهَشيم
فما وَجدْتُك

* * *

في اليومِ الثالثِ
رايتُكَ تُطِلَ
ضَاحكاً ، لا مبالياً
في اليومِ الثالث
رايتُ لهفةَ تُشرِقُ
من تعابيرِ وَجْهِك
في اليَوْمِ الثالث
رايتُ قبالتي صنَماً
لوْنهُ خيالي
فوقَفتُ أتأمّلك...!
تأمَّلتكَ طويلاً طويلا
لأرَى
إذا كانَ قَوَامكَ المشْوقُ
يُشبهُ أيَّام انتظاري
تأمَّلْتك...
لاتبين..

ما إذا كانَ وجودُكَ
ضخماً كوحشتي

تأمَّلتكَ
لأُحدِّد كيانك
من أحزاني...
وبقيتُ اتأمَّلُكَ
في صمتٍ، غريبَةً...
وفجأةً... عدتُ إلى نفسي
عدتُ إلى أعماقي...
وفي عاطفتي بحثتُ عنكَ
فما وجدتُك

* * *

كانَ اليومُ الثالث
أنشودةً حزينةً
كأحلامي
كذكرياتِ المدينةْ

أُنشودةً كئيبةً مُوجِعة
ردَّدْتُها في توديعِك
وكانَ قلبي في ذاكَ اليَوم
يبكي ويضحك
لسْتُ أدري لماذا...
فلطالما ضحِكَ القلب
في لحظات البؤس!
تراه يدري
أنَّ أقصى مراحل الخيبة...
ضحك؟

دمشق 1968

* * *

المنام

ليلُ في عينيك

اغراني...

ودفءٌ

في نظراتك الحيرى

ناداني...

تركتُ الضوءَ والمجدَ والدنيا

وتوغّلتُ في سوادٍ

ذكّرني جراح عمري

وأنساني...

ولمّا وهَبْتُ شفَتيْكَ

نحيبي

يا حبيبي

ولمّا طَوى ليلُ عينَيْكَ

أحزاني

بدَّلتُ لَيْلَنا إشرَاقا

وشمساً...

أكان لقاؤنا حلماً ؟

أكنتَ معي أمس

أم كان أمسي...

هجساً...؟؟

رصَّعْتُ لك الظلام

بنظراتٍ حَنونْ

وبأنّاتِ قلبٍ مجروح

زخرفتُ لك

السكونْ...

وخَلقتُ لكَ ملجأ دافئاً

من وحدتي الباردة

المُرّة!

يا لَسَهَرَةْ

سكرتُ أمسِ

من نجوى العيون

أتراني

أنا التي كنتُ سكرى؟

أتراني

جعلت الوهم والخيال

واقعاً وذكرى...

وتخيّلت الفراغ أنساً...

أتراه مجرَّد حلم؟

أوَ لَمْ نعشْه

قلباً

وفكرا

وحسّا..؟

كان القنديلُ في الزاوية يضيءُ

دونَ زيتْ...

كانتِ الكأسُ

في يديّ فارغةً

وارتويتْ...

كانَ في عينيكَ خوفٌ

كأنّما منَ المُحالْ...

ولمّا لاحَ على شفتيكَ

شبهُ فضولٍ

شبهُ سؤال..

تركتُ شَعري الطويل

ينسابُ في يَدَيْكَ

بَوْحاً... وهَمساً...

حَبيبي...

ربمّا كان لقاؤنا حلماً

لكنّك كنتَ معي...

في الحلمِ... في الحبّ... وفي أدمعي...

كنتَ معي...

لما غزَلنا اللَيْل

ونسَجْناهُ... وتراً... وكأساً...

كنت معي... كنت الحبيبْ

كيف إذنْ تغيبْ...

كيف إذن تنسى؟؟؟

دمشق ***23/ 12/ 1967***

* * *

حبّ

الغرفة معلقة في الفضاء.

مصبوغة بألوان الليل والبحر والمروج.

مزينة بشرائط الفضة والذهب.

مفروشة بجلود الخرفان.

ضيقة، مزركشة، صغيرة...

حلوة كهدايا الأعياد.

وكاللعب المعلقة على شجرة الميلاد.

* * *

أيام وأيام ونحن ـ أنا وأنت ـ
نتحدث عن حرب تشرين.
انتهت الحرب.
وظل تشرين يعيش في أعصابنا.
في عواطفنا. في كلماتنا.
أيام وأيام ونحن ـ أنا وأنت ـ
نذكر أصدقاء لنا رحلوا...
وظلوا أحياء في قلوبنا.
يروون لنا قصص الحب الخالدة.

أيام وأيام ونحن ـ أنا وأنت ـ
ننتفض مع الوطن.
هذا الذي اختلط بذراتنا.
فحملناه كعمرنا.
وأحببناه كعمرنا.
وقررنا أن نهبه العمر.

وطوال أيام طويلة... ونحن ـ أنا وأنت ـ
ناسون ذاتنا تماما.
وكأن كل واحد منا رمز
تجسد فيه الوطن الغالي.

* * *

وأطلت الأعياد علينا.
متلاحقة كالتهاني.
مغلفة بذكريات تشرين.
عيد الميلاد. وعيد الأضحى.
وبينهما عيد يشع كالنيزك
فيربط بالشعاع العيدين.
وتعبر الدنيا بأكملها،
على ومض الشعاع من عام إلى عام.
في هذا العيد النيزك الذي يذكر بالرحيل،
وجدنا أنفسنا ـ أنا وأنت ـ
في الغرفة الصغيرة المعلقة في الفضاء،

المصبوغة بألوان السماء والبراري،

والدافئة كجلود الخرفان.

* * *

كيف ولماذا؟

كان أشخاص في الملاهي وفي الشوارع

يغنون ويصيحون ويهزجون.

وكانت الحفلات مقامة في البيوت

وفي المطاعم التي عجت بالناس

ولم يستهوك أنت، في تلك الليلة،

الهزج والغناء.

كنت ما تزال مصرا على متابعة حديث الحرب. الحرب التي

أكدت لك

أن الوطن هو الحب الكبير الأوحد.

وما كنت بدوري راغبة في رؤية الناس.

كنت ما أزال أحن

إلى الأصدقاء الذين رحلوا،

حاملين معهم قصص الحب الوحيدة.

وضحكت لنا في الأعالي،

تلك الغرفة المتعالية على الضجيج،

فلجأنا إليها.

حاضنين إلى صدرنا حبنا الكبير

المسمى وطنا.

* * *

لكن حديث الحرب ضاع منك،

حين شعرت في تلك الصومعة الصغيرة،

بالزمن يهرب طاويا سنة من العمر.

والأصدقاء الذين رحلوا،

أصروا عليَّ في لحظات العام الأخيرة،

أن أتمسك بالحياة...

فوجدتني بين ذراعيك المفتوحتين لي...

المغلقتين عليَّ ...

وهربت، مع أنفاسنا المتلاحقة،

لحظات العام الأخيرة.

وحين انتصف الليل،

كانت شفاهنا وحدها

تطبق في نهم على العام الجديد...

* * *

ترى...

أكان من الضروري

أن يحملنا التقاء سنتين من العمر،

إلى تلك الغرفة المعلقة في الفضاء،

الحلوة كهدايا الأعياد،

لنتذكر أننا، في غمرة حبنا الكبير،

للوطن في قلبينا،

قد نسينا حبا بسيطا

يعيش في قلب الوطن...

حباً عاديا عاديا... اسمه - أنا وأنت - ؟

*عيد رأس السنة **1973 ـ 1974**.*

الفصل الثالث

الرجل الأزلي

خَبِّريني... طمئنيني يا صَديقةْ

هَـــلْ بَكَـــى بَعْــدَ ذَهَـــابي

خَبِّريني... لاَ تَخَافِي فَالحَقِيقَةْ

دَمْعُـــهُ يَـــرْوِي عَذَابـــي

كوليت الخوري

قصص

المتفرّجة الازليّة...

كلماتُ الحبّ تتطايرُ في الجوّ.

الأحاديثُ تُنسَجُ منَ المفاهيمِ المختلفةِ عن الحُبّ.

أيةُ علاقةٍ بين رجلٍ وامرأة يُغلّفونها برداءِ الحبّ.

أية مغامرةٍ سطحيّة يسكبون فيها معنى الحب.

حُبّ. حبّ.

وكلّ فرد من الموجودين يتحدّث عن الحبيب أو الحبيبة.

وأنا وسط الجميع... وحدي!

أستمع إليهم وأرشف قهوتي ـ في صمت.

ويلتفت إليّ زميلٌ قائلاً:

- كلنا عاشقٌ إلا أنتِ...! إلى متى

تظلّين متفرجة؟

تصوغ السخرية ضحكتي فيسأل:

- لماذا تضحكين؟

أغمغم ـ في خبث:

- أضحك... لأنني لا أحبّ أحداً!

* * *

وأخفضُ طرفي.

"لا يا صديقي البعيد. لا يا أسمر.

لن أدعهم يرَوْن طيفَكَ يتبخترُ تحتَ جفنيّ.

لن أدعهم يلمسون بريقاً تماوجَ ـ في عينيّ.

لن أَحملك إلى هذه الأجواء التي ماتَ فيها

الحبّ"

ويسألُ الزميل:

- أنتِ دائماً تعيشين بأفكاركِ ولكن قلبك...

ألا يخفق؟

أشعر بضرباتٍ تمزق أضلعي.

"لكَ وحدك يا أسمر... سأبني من هذا الخفقان

صومعةً..."

ويتابعُ متعجباً:

- كيف لا يخفق... وأنتِ شابة وجميلة؟

أرمقه وأجيب مبتسمةً:

- أنا لستُ عاطفيّة!

يعلق:

- غريب... غريب!

* * *

أحضن الفنجان بيدي. وتسبحُ نظراتي ـ في السائل البنيّ.

"لك... يا اسمر... سأُفتّتُ جمالي قرابين.

وبفوران شبابي سأُحرق الدنيا لأقدّمها

إليك جمرَ حبٍّ وبخورَ حنان" ...

يعود الزميل إلى محادثتي:

- بلى... أنت قويّة!

ويستأنف شارحاً:

- لأنك لست عاطفية... أنتِ قويّة!

أبتسمُ في مرارةٍ ولا أردّ!

لا!

لن أُحدّثه عن ضعفي. ولن أُخبره أنّ هذه القوّة تزيد الأنثى في أعماقي ضعفاً!

الأنثى في أعماقي!

وغريزياً تهربُ نظراتي من وجهِ الزميل لتُهوّمَ على الإناث الموجوداتِ في الحَلَقة. وأعجب.

لقد زاد عددُهن اثنتين... جاءتَا منذ قليل وانضمَّتا إلى المجموعة.

* * *

يقتربُ منّا أحدُهم ويسأل الزميلَ في هَمسٍ:

- هذه الأولى نعرفها... ولكنْ... مَنْ هي هذه الثانية؟

يَرمي الزميلُ نظرةً إلى الاثنتين ثم ينطقُ في خُبث:

- إياكَ أنْ تسألَ عن هذه الثانية... فهي حبيبةُ صديقنا البعيد... الأسمر!

تتّسعُ عيناي ثم تغوران.

أمواجٌ من الدم تهربُ من وجنتيّ وتتخبطُ نظراتي على الموجودين لتُرسي هناك على فتاة حنطيّةِ اللون كستنائيةِ الشَعْر ناعمةِ الملامح.

أُحدق إليها في نهم.

ربما لأسرقَ من على وجهها آثارَ نظراتِ حنانٍ اشتهيتُها.

رُبّما... لأخطف من على خدَّيها بصماتِ يدين تلهَّفْتُ للمسهما...

* * *

ويلتفتُ إليَّ الزميل:

- أرأيتِ؟ الكلُّ يحبّ... ويصاحب... إلاّ أنتِ..

أيتها المتفرجة الأزليّة...

تغصّ حنجرتي بالكلمات. وعلى الرغم مني يلمعُ دمعٌ في عينيّ.

"أنتَ أيضاً يا صديقي البعيد... يا أسمر... تحبّ! وقد ظننتُ اهتمامَك بي حبّا!

ويعجبُ الزميل:

- ما بكِ؟ دمعٌ في عينيك...

بجهد أتمالك!

لن يعرفَ أحدٌ سرّي

بل من قال إن لديّ سرّاً؟

وهل كان حبيّ إلا وهماً... ملأتُ به فراغ أيّامي...؟

من قال إنني أحبّ؟

أنا... أنا فعلاً... المتفرجة الأزليّة!

يُعيد الزميلُ سؤاله مستغرباً:

- لماذا تبكين؟

أغمغم في عنفوان:

- ابكي... لأنني لا أحبّ أحداً!

1968

الجبل

لا أيها السيد... لا!

دعني وجراحاتي، دعني أبكي وأصوغ من دمعي سبحات وصلوات.

دعني أشق طريقي بنفسي وابحث في ضياعي عن وجودي.

لا!

لا تلملم مبعثرات نفسي. دعني مشردة. ولا تحاول إيناس وحشتي. دعني وحيدة. فقوتي في وحدتي... أيها السيد!

وحين يبتلع الحب وحدتي أغدو ضعيفة. أيكون لديك آنذاك قوة تكفينا معا؟ لا !

لا ترمقني معاتبا.

أيام قليلة جمعتنا في هذا الفندق الكبير.

"شاعرة مشردة" ...

هكذا قالوا لك. فروى غرورك هذا التشرد وأثار قوتك.

أما أنا فلا اعرف عنك سوى هذه الرجولة الصائحة في كل تصرف من تصرفاتك.

وكانت الرجولة فيما مضى تغريني...

فيما مضى... لكنني كبرت! ... فاعذرني أيها السيد!

ما زال العتاب يطير إلي من عينيك سهاما.

تعاتبني على عدم اكتراثي.. كيف لم تهتز ذراتي أمام قوتك؟

سأحاول أن اشرح لك.

لا أيها السيد... لن أحدثك عن نفسي. لكنني اعرف قصة صغيرة سأرويها لك. ربما محت في عينيك هذا العتاب...

"... هناك في السهل الأخضر كانت الساقية تجري. أطلت على الدنيا من النبع وحيدة، وفهمت أن الطريق طويلة شاقة، وان عليها أن تشقها

بنفسها... فتفجر ألمها خريرا حزينا زادها صفاء وعذوبة.

".... كان الأطفال يلعبون حولها، والطيور ترفرف فوقها، والعابرون يسرقون من وكوثرها لمعان عيونهم، ويجدون في مجراها طريقهم...

"... كانت رقراقة... وكنفسي معطاء....

لماذا ترفع حاجبك مستغربا؟

أحطتني باهتمامك خلال الأيام الفائتة

وأدهشتك لا مبالاتي.

ثم جئت اليوم تطرّز لي المستقبل بالوعود.

فرأيتني أقف في برود لأحدثك عن الساقية.

تصرفي يبدو غامضاً...؟ لا تستغرب أيها السيد

واسمع نهاية القصة.

"هذه الساقية كانت تنعم بالهواء الطلق، بتغريد الطيور، بمداعبة الأطفال، بهداية العابرين...

"...كانت تنعم بالحرية، والحرية قوة أيها السيد..
الحرية قوة.

"ولكن بالرغم من ذلك، كان خريرها ينبئ عن حزنها الدفين وعن بؤسها، فالطريق طويلة صعبة.. ومسؤولية المسير مرهقة، والصفاء كنز مخيف في المنطقة... ومتعب!

انك تبتسم. أعجبتك عبارتي الأخيرة. لا بأس. أحب البسمة بعد العتاب. لكن قصتي ليست مضحكة.

"... هذه الساقية ظلت تنوح ويرتفع نواحها خريرا... إلى أن التقت، هنالك في المنحنى... بالجبل!

"جبل شاهق لم يعرف السواقي.

"تمهلت لديه لحظة، وتطايرت ذراتها لآلئ استغراب ودهشة، ثم تسلسلت آمنة.

"وعجب الجبل من هذا الصفاء الجاري في سفحه فحنا عليه.

"وحين حمل الصدى إليه النغم الموجع، أحس بقيمة ضخامته فتدحرجت أحجار منه تشق الطريق للساقية... وانقلب النغم المجروح زغردة وابتهالا.

"... لم تصدق الساقية أنها وجدت أخيرا من يحميها من الطريق الطويلة الموحشة.

"لم تصدق أنها لقيت سورا منيعا يقيها الرياح والعواصف والشموس المحرقة.

"... والتصقت بالجبل!

"وشوشها الأطفال أن هذا الجبل يقوم على مستنقعات موبوءة. فترقرقت...

"ما شأنها والمستنقعات؟ هي صافية! ستتحدى بصفائها الدنيا!

"همس لها العابرون أن المنطقة في حاجة إلى نغم مجروح يهدي الضائعين. فلم تأبه. وتغلغلت صامتة في حنايا الجبل.

هي الآن تريد من يهديها ويشق لها الطريق.

"ذكرتها الطيور أن الحرية قوة! فتلألأت عقدا دامعا في جيد الجبل.. وغنت!

"قوته تكفيهما معا! بملء حريتها ستدفن حريتها. وبكل قوة ستتخلى عن قوتها... ما دام هذا السند المنيع قد حنا عليها...

وهنا ... هنا فقط أيها السيد... بدأت القصة! أرى الحيرة تموج في عينيك وعلامات الاستفهام ترقص على أهدابك.

آه لو كان في استطاعتي أن أنسى لديك وحدتي وأن أمد لك يدا تعبة طالما تمنت الاستراحة في يدين قويتين.

لا تستغرب موقفي. ودعني أكمل لك القصة.

"... أحست المستنقعات بمنافسة الساقية، فراحت تتمدد تحت الجبل وتنفث ذراتها الفاسدة في حناياه. وفهمت الساقية الخطر المحدق، وخافت من الوباء المتفشي، وملأها الحنين إلى براءة الأطفال وحرية الطيور وضياع العابرين. وتمنت لو تحرف مجراها... لكن طيبتها جعلتها تتردد...

"...هل تمضي وتترك الجبل غارقاً في المستنقعات الموبوءة؟ أم تبقى إلى جانبه ليستمد من صفائها قوة؟

"وقررت أن تبقى! قررت أن تضحي من أجل جبل أراد يوماً أن يحميها.

"وحدثت المأساة!

"بقيت الساقية إلى جانب الجبل... مؤمنة بصفائها.. لكن السخرية شاءت أن يتهدم هذا الجبل وينهار...

"شاءت السخرية أن تنتصر المستنقعات المتمددة تحته... لسبب بسيط وهو أن جبال المنطقة كلها... رملية أيها السيد.. رملية!

هذه هي القصة!

لا أيها السيد! لا!

لم انسجها من صور الخيال. بل سرقتها من صميم الواقع.

هي قصة الصفاء في المنطقة!

هي قصة الجبل...

هي قصة عمري أيها السيد...

فلا تلمني...

إذا لم تغرني مظاهر القوة في كيانك وإذا آثرت التشرد على مستقبل أمين سرابي يلوح على راحتك.

لا! لا تلمني!

أنت قوي أيها السيد!

أنت جبل...

لكنني في الماضي أحببت!

هو أيضا حين التقيت به... كان جبلا... يا سيدي

بلودان 1964

* * *

ثرثرة نساء

نحن صديقتان على الرغم من أننا لا نلتقي إلا نادراً.

ولكن كلما التقينا نسينا الفترة التي فرقت ما بيننا وشعرنا أننا لم نفترق إلا في الأمس.

لهذا السبب نختصر في كل لقاء لنا فترة غيابنا فتلخص كل واحدة منا للثانية بعفوية كل الحوادث التي مرت معها خلال فترة التباعد.

ومع أننا لا نتشابه على الإطلاق...

فأنا إنسانة من فرط خوفي على نفسي من عاطفتي الرقراقة، غلفت نفسي بالسخرية واللامبالاة، فبدوت للناس قوية جبارة...

وهي، من فرط تفجر رغباتها المادية، غلفت نفسها بالعاطفة، فبدت ضعيفة تكاد تذوب رقة.

نعم، مع أننا لا نتشابه على الإطلاق إلا أن الثقة تربط ما بيننا.

فأنا اعرفها على حقيقتها وأتقبلها.

أما هي، فإنها تحتملني كما أنا... ولا تناقش.

* * *

والتقيت بها في الأمس بعد شهري غياب. كنا خلالهما غارقتين في أعمالنا، لا تسمع واحدتنا صوت الثانية إلا عابراً على الهاتف.

تحدثنا كعادتنا عن كل شيء. وعن الرجال. طبعاً.

من عادتي أن اترك الرفيقات يحدثنني عن الرجال. لأنني أعرف أن كل واحدة منهن تنتظر بفارغ الصبر أن تجتمع إلى

صديقة تثق بها لتفرغ لديها ما في قلبها من حكايات مكبوتة، وأسرار ثقلت بها نفسها.

وهذه المشكلة أنا لا أعانيها. فأنا لا أتحدث عادة إلا عن الرجال وبالأصح معهم.

وحكاياتي لم تكن في يوم من الأيام أسراراً.

لهذا السبب لم أبادرها بالحديث عنه!

هو؟ ولنفرض أن اسمه عدنان...

عدنان؟ اسم من الأسماء التي تلمع فجأة عن جدارة أو غير جدارة. فمجالات الشهرة متعددة ومتناقضة وواسعة.

وخصوصاً في مدينتنا... وفي هذه المرحلة!

وقد يلمع اسم إنسان، لأن الإنسان عبقري، أو قاطع طريق، أو... مولود في برج الحظ!

كمثل الذي يدعى إلى منصب لا يحلم به... أو تدعوه صفقة غريبة... لأحضانها...!

المهم أنني التقيت بهذا الاسم اللامع منذ شهرين ويجب أن اعترف أن أول ما أعجبني به... هو إعجابه بي ليس إلا!

ونمت بيننا خلال الشهرين صلة تودد وتقارب ظننتها ستؤدي إلى علاقة وثيقة.

وبخاصة عندما صار يشعرني بأنه في حاجة إليّ.... فأنا دائماً في حاجة إلى حاجة رجل إليّ...

لهذا فوجئت عندما قالت لي:

- من أخبرك أنني إستقلت من عملي؟

بربك أليس عدنان؟

للوهلة الأولى ظننتها اكتشفت صلتي به!

لكنني سرعان ما تساءلت من أين تعرف هي عدنان؟

وبحذر الأنثى الغريزي أجبتها على الفور بصورة طبيعية:

- لا! بل صديقتنا المشتركة إلهام هي

التي أخبرتني باستقالتك... قابلتها قبل أمس...

قالت:

- آه... صحيح... الهام أيضاً على علم

بالموضوع!

فسألتها:

- ولكن كيف خطر على بالك عدنان؟

قالت:

- لأنه الوحيد الذي استشرته في موضوع

استقالتي.

توترت أعصابي. تيقظت أحاسيسي.

بجهد جعلت لهجتي عادية وأنا أقول:

- أنا أصلاً لا أعرف أنك تعرفين عدنان!

أما أن يكون مستشارك الخاص..

قاطعتني وهي تضحك وتقول ببساطة:

- أعرفه جيداً... لكنني لم أركِ منذ

شهرين لأحدثك عنه...

تجنبت أن أخبرها أن صداقتي معه عمرها شهران وأنه لم يحدثني عنها هي بل أنه تجاهل اسمها تماماً حين ورد في حديثنا ذات مرة.

وسألتني:

- وأنت؟ هل تعرفينه؟

قلت وأنا أحاول أن ابتسم:

- كل إنسان يقرأ مجلة يعرفه يا عزيزتي فاسمه غدا معروفاً هذه الأيام! طبعاً أنا أعرفه...

ألحت:

- أعني أكثر من ذلك...

وجدتني أكذب.. حذرا أو مراعاة أو كبرياء... لست أدري:

- التقيت به عدة مرات بحكم عملي كصحفية...

هزت رأسها في تعال...:

- لا! أنا أعرفه.... جيداً...

لست أدري لماذا ضحكت عوضاً عن أن أغص واختنق ! ....

أمن سذاجتها وهي الماكرة؟ أم من خبثي أنا التي لا أعرف الخبث؟

ربما ضحكت من انقلاب الأدوار!

وأراحتها ضحكتي فاسترسلت في الحديث والشرح!

عدنان يعرفها منذ زمن. عدنان غازلها منذ شهرين!

عدنان يزورها دائماً. عدنان يدعوها إلى سهرات خاصة...

عدنان اعترف لها أنه لا يعرف غيرها ولا علاقة له مع أية مخلوقة غيرها... عدنان مشغول جداً.. يعمل طوال النهار وأحياناً طوال الليل... لذا يتغيب عنها كثيراً...

كانت تتحدث... وكنت أنا المستمعة.

أنا!

المرأة نفسها التي كانت طوال الشهرين الماضيين تستمع إلى عدنان يقول الكلمات نفسها:

"هل تظنين.. هل يخطر في بالك أنني أزور غيرك؟ أنا لا علاقة لي مع أية مخلوقة في هذا البلد! العمل مرهق! اعمل حتى في الليل... حين أتغيب عنك أكون مشغولاً للغاية..."

واستمرت الصديقة:

- طبعاً لا أحد يعرف علاقتي به.. وهو لا يريدني أن أخبر أحداً... لكنك لست غريبة عني...

وشعرت أنني فعلاً لست غريبة عنها، وأنني في الوقت ذاته غريبة عن عدنان تماماً...

وخطر على بالي أن أخبرها عنه وعن صلتي به!

لكنني عدلت عن الفكرة.

ما الفائدة؟

أنا أعرفها جيداً وأعرف ماذا سيحصل...

ستتألم... ستبكي... ستثور... ستعاتبه... ستتخاصم معه...

ستلعنه... و...

و... ستستمر علاقتهما!

هززت رأسي وقلت لها في صداقة صادقة:

- لا حاجة بك لأن تخبري أحدا

بالموضوع.. وإياك أن تخبريه أنني

علمت بالأمر...

قالت:

- لا بالتأكيد! سينقم علي... وأنت أيضاً لا

تخبريه...

كانت الدهشة واضحة على وجهي.

أخبره؟

من المستحيل أن تفهمني هذه الصديقة! من المستحيل أن تدرك أنه لن يسمع صوتي بعد هذه اللحظة...

بل من المستحيل أن تقتنع أنني في هذه اللحظة بالذات أحسه وكأنه بعد عني سنوات... حتى إنني أكاد لا أتذكره... من هو هذا الشخص الذي يسمى عدنان وهل حقا أنا أعرفه؟

وأمام دهشتي تابعت تشرح:

- أعني إذا صدف والتقيت به يوماً...

إياك أن تذكريني...

تذكرت أنها لا تعرف صلتي به، وأن حذرها طبيعي، فقلت في هدوء أطمئنها:

- لا تخافي...

وتابعت بابتسامة هي مزيج من الود والصدق والسخرية والتصميم:

- لا تخافي... أنا واثقة من أنني لن ألتقي به يوماً.. يا عزيزتي.. لن التقي به.. أبداً.

1974

* * *

الرجل الأزليّ

- 1 -

ارتديت أجمل ثيابي...

وأجمل ثيابي دائماً سوداء اللون...

وفتشت عن خواتمي الثمينة... وغرست فيها أصابعي...

وبحثت عن أطول قرطٍ عندي... وشككته في أذني... فظلّ

بعيداً عن كتفي... يتلهف مثلي للوصال...

وتركت جيدي عاريا إلا من العطر...

وخرجت إلى الشرفة...

أنتظر رجلاً... لن يأتي.

- 2 -

كل يوم جمعة منذ بدء الزمن...

أهرق العطر على جسدي... وأقطّر الصلوات في نفسي...

وأشعل البخور في أنحاء بيتي الواسع...

كل يوم جمعة أقضي ساعات أمام المرآة... أعتني بتصفيف شعري الذي طال مع الانتظار...

وأتمهل في رسم الكحل "حدوداً" حانية تحضن عينيّ الساهرتين...

وعندما أطمئن إلى هندامي وشكلي...

أخرج إلى الشرفة... لأنتظر طوال المساء...

رجلاً... لن يأتي!

- 3 -

هذا الرجل أنا أعرف انه لن يأتي... فأنا قد انفصلت عنه منذ زمن بعيد...

وهو لا يدري أنني كل يوم جمعة على هذه الشرفة... أكثّف سنوات عمري في ساعات الانتظار...

والواقع هو أنني لم ألتق بهذا الرجل يوماً... كي أنفصل من ثمّ عنه...

لكنني رغم فراقنا الأزلي... أعرفه جيداً جيداً...

أعرف كيف يفكر وكيف يتصرف وبماذا يؤمن...

وأعرف كيف ترقّ نظراته الصارمة وهو يتأملني...

وكيف تغدو ابتسامته الهازئة، وهو يحضنني، تمتمة حزن وحنين...

ومع أنني لم أره يوماً إلا أنني رفضت كل رجال العالم...

لأنهم ليسوا هو...

- 4 -

هذا المساء أنباني هاجس بأن أمراً ما سيحدث.

دورة الأرض توقفت وعلم الرجل بموعد يوم الجمعة...

سيظهر حتماً... وسأتعرف لأول مرة إلى حبيبي...

الطقس منعش... والسماء واضحة... والشارع يَعجّ بالمارة.

أشعلت على مهل لفافة...

ومثلها رحت أتحرق وأنتظر...

وانسابت نظراتي مع الدخان ترفرف على العابرين...

غريب كم أن هناك في هذا الشارع بشراً ليسوا حبيبي...

غريب كم أن هناك في العالم رجالاً ليسوا الرجل الذي أنتظر...

ـ 5 ـ

فجأة وعلى حين غرة...

دوّى غضب في الأعالي... وتفجّرت السماء بكاء...

دارت الأرض من جديد...

وفاجأ تحول الطقس الناس فراحوا يقفزون كالجراد بين أسلاك المطر...

وقبل أن أتفاجأ بدوري بنحيب السماء يغدو سيولاً...

سطع ضوءٌ... فرفعت طرفي إلى أعلى...

ولمحت رجلاً يهرول صوب البرق الذي انشقت عنه السماء.

وعندما حضنه الضياء تعرفت إليه،

فاتسعت عيناي دهشة... ودمدم صوتي وحده:

"دهوراً دهوراً وأنا أضيء لك الشرفة

بلهيب شوقي... فكيف أغراك البرق

العابر؟".

التفت فرآني فتذكر...

لكن السماء انغلقتْ...

وغاب الرجل كما البرق!

ـ 6 ـ

"زمجري يا رعود...

فوعود العمر ذهبت هباء...

ومواعيد الحياة أحرقها البرق...

وأنت يا سماء... مزقي نفسك وأعولي...

سيولك الجارفة لن تغسل من نفسي الخيبة!

بعد عصور الانتظار...

أتى الرجل!

لكنه ضلّ طريقه إلى شرفتي!

وحين تذكر الطريق...

اكتشفت أنا أنه ليس... حبيبي...!"

.7.

الأمطار تغرق المدينة وتتجمّد في عينيّ.

دخلت إلى البيت وأقفلت ورائي باب الشرفة... ورميت بالمفتاح في هاوية النسيان...

بعد اليوم لن أرتدي كل يوم جمعة أجمل أثوابي... ولن أسجن نفسي في محابس الأصابع... ولن أتلهّف مثل قرطي.. للوصال...

بعد اليوم سأغيّر عطري!..

فأنا بعد اليوم.. لن أنتظر كل يوم جمعة على الشرفة

رجلاً... سيأتي...

رجلاً... أعرف الآن ويا للسخرية أنه لا محالة سيأتي...!!!

دمشق *9/ 11/ 1984*

الفصل الرابع

شهقات وجد

في غدِ ألقاكَ

أمْ بَعْدَ غدٍ

يا لهُ عَهْداً...

طَوِيلَ الأمَدِ

طلعت الرفاعي

شعر ضيع اوزانه

قلق

كلَّ يوم

يحتلّ طيفك في قلبي

مكاناً أكبر...

كلّ يوم

يتّسع وجودك في حياتي

وأشتاق إليك أكثر...

لست أدري

كيف غدا سأحتمل غيابك

لماذا سأصحو

لمن سأشدو

وكيف سأسهر

خائفة من غدي... خائفة...

فأنا لم أعد أدري

كيف غداً سأمنع عمري

من أن يتبعثر...

* * *

بوح

ليتك كنت تعرفني.. منّي!

أنت تسمع من غيري عني

قصصاً...

من شتى الألوان...

أني امرأة تشدو الفرحة

وروائية

من عادتها...

قلب الصفحة..

أنثى تهزأ بالأحزان

تهزج في وجه الأزمان...

ليتك كنت تعرفني... مني

ليتك كنت تقرأ ظنّي

أني

في هذي الدنيا

رمز الغربة للإنسان...

ليتك كنت تعرفني... مني

ليتك كنت تعرف أني

حين أغني...

أغزل من دمعي الألحان...

* * *

يا انت يا ملك

أهكذا تكون مواعيدُ الملوكْ؟

يا أنتَ

يا أهمَّ منْ ملِكْ؟

دونما عُذْرٍ تغيبْ

كأنَّكَ لستَ الصديقَ

ولَسْتَ القريبْ

كأَنَّك لستَ المُعَلمَ

في نهجِ السُلوكْ

أَهكذا؟

أهكذا تكونُ مواعيدُ الملوكِ؟

* * *

أَهكذا يُراعى الشُعورْ؟

يا أنتَ؟

يا حَبيبْ؟

دونما عُذرٍ أو سَببٍ

تغيبْ...

وأقضي مساءً

بطولِ الدُهورْ

ويَجمدُ دَهرْي على أنملكْ

أهكذا تُساسُ الأمور؟

* * *

هاتفٌ صغيرٌ تُديرهْ

ويَهدأُ في الصدرِ هَديرُهْ

وتَهمي عَليَّ...

النجومُ والأَلحانُ والأَشعارْ...

هَاتفٌ صغير...

لَفْتَة اهتِمَامْ

وأبني مَسَائي بِرَصْفِ الكلامْ...

وأغتني بوعدٍ جديدٍ أَمتلكْ

ويَغدو انتظاري قصيداً جميلاً

فمتى.. مَتَى كنتَ بخيلا

يا صديقي...

الأهمَّ من مَلِكْ...

* * *

عتاب

عتابي طويل طويل

ويطول

فماذا أقول...؟

كموج البحور...

كالمدى كالإعصار...

عتابي لا يعرف الاختصار

كتبه طوال شهور

نزف الثواني

في كياني...

ففاض على الانتظار

سؤلاً مبهماً

لا يلحّ ولا يزول

أملاً يعيش ولكن

في احتضار...

فماذا... ماذا أقول؟

أواه... كم هو عميق

عتابي لك

يا صديق

* * *

الحلم الشفاف

هو - أنتِ وأنا والشمس

لِنُبحِرْ... لِنَرْحَلْ...!

أنتِ وأنا والشَمْسْ...

لِنَنْسَ الدَمَ والصُراخَ

والعارْ...

لننسَ الأمسْ

ولْنبنِ عالماً

هوَاؤه نسيانْ

بحوره أمانْ

وألحانُهُ همْسْ

أنتِ وأنا والشمسْ

مَالَنا نَتَردّدُ

مَالنَا نتطلّع إلى الغد

ونحني الرأسْ

ما لنَا نخافُ الهَرَب

نعجز عن الهرب

إلاّ في الدُخانِ

في الأوْهامِ...

وفي غَيَاهبِ كأسْ...؟

مَالَنا...؟

عيونُنا معلّقةٌ بالضَوءْ

وأقدامنا غارقةٌ

في الرَمْسْ

لنَرْحَلْ عنْ عالِمِنا المريض

لنمضِ بعيداً...

أنتِ وأنا والشّمْسْ

ليكنْ واقعاً

حلمُنا الشفّاف

ليكنْ واقعاً...

هي - لا يا حبيبي... لا

ليبقَ حلمنا

في العينِ وفي الحدْسْ

ليُشرقْ وسط واقعنا الحزين

دمعةً غارقةً في الحنين...

هنا ترعرع حلمنا

لقاؤنا هنا كان

زيَّنَّا به المكان

تحدَّينا به الزمان

وحرقنا من حولنا

غصص اللوعة

وحكايات اليأس

أنتَ وأنا والشمس

عالم ذهبي شفاف...

دعه كما هو... اتركه

لا تلمسه

ينهار من اللمس...

* * *